سمو الانسانية

فى قلب الرسول الأعظم

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)
« قرآن كريم »

للاستاذ خليل هنداوى

« لا يحسبن قارىء المقال أننا أردنا أن نعطل حدود الشرائع بدرسنا للعاطفة الانسانية السامية فى قلب الرسول ، وإنما هو بحث جرى على القلم جواباً لمن يزعم أن تعاليم الاسلام تعاليم صارمة قاهرة لا تفيض — كالشريعة المسيحية — رحمة ومحبة وحنانا »

« خ ، هـ »

لا تزال علة الآثمين الخارجين على حدود الشرائع علة مستحكمة ، لا يبت فيها فريق حتى يهب إلى نقضها فريق . وكلا الفريقين له الحجة الساطعة . فمن الشرائع ما يرى فى الأثيم العدو للانسانية ، والمريض الذى يخشى انتقال جراثيمه إلى غيره ، لأن الأمراض النفسية حكم أكثرها كحكم الأمراض السارية تعصف بالأجساد عصفاً . وهذا المريض — فى حكمها — لا يرجى شفاؤه ، وإن فكرة الاجهاز عليه هى خير فكرة تتقى بها منه !

وقد تفننت الشرائع الحديثة فى تعيين هؤلاء الآثمين والمجرمين وفى عزلهم عن طبقات الناس . ومن الشرائع ما تنظر إلى هؤلاء بعطف ورحمة . لا تنظر إلى الأثم — كالكل فى الأثم — وإنما تنظر إلى الظروف التى صاحبته ، والعوامل التى ساعدت على خلقه . وهى بعد هذا كله لا ترى فى الآثم إلا إنساناً ، جبل على طينة الانسان ، يخطىء ويصيب ، ويفعل الشر ويصنع الخير . هذه الشرائع التى غلبت العاطفة الانسانية على كل عاطفة ، واستمسكت بالمبدأ الانسانى الذى يعلو على مصطلحات الخير والشر . وهذه فكرة تطير بجناحين من السمو والعلو . ولكن علماء القانون لا يعتقدون بهذه الفكرة المجنحة لأنها تظهر بغير حدود ، وتنتشر على أبعاد دونها أبعاد الفضاء . وهم يريدون أن يحددوا لكل موقف شأنه ، فاذا سرق السارق فما عسى يكون جزاؤه ؟ وإذا زنى الزانى فما عسى يعامل به ؟

مثل هذه الفكرة الانسانية قد تجلت فى موقف السيد المسيح حين قدموا له زانية ليرى فيها حكم الشريعة — وما كان حكم الشريعة إلا الرجم — وما كان للمسيح أن يعطل هذا الحكم ، وهو لم يجىء لنقض نواميس الأنبياء ؛ ولكنه تسامى فى هذه المرة ما شاء له التسامى ، فأمر بأن يحفروا لها حفيرة ووقف قائلاً :

— ليرمها كل من لم ترتكب نفسه خطيئة بحجر !

فوقف الجمع ولم يرموا ، وغادروا المرأة وشأنها . ولكن هذه الفكرة تظل جميلة ما ظلت منطلقة حرة من غير قيود ، فاذا شئنا حصرها وإخضاعها للعمل ضاع رونقها وفشت الشرور بحجة أن كل نفس فيها من طينة الشر شىء . ولذلك لم يقدر المسيح نفسه على القول بالعفو عن كل زانية وزان وسارقة وسارق ، ولم يقدر غيره على القول بذلك . ولكن المسيح أراد بضرب هذا المثل أن يحفظ للآثمين هذه الانسانية التى تربطهم بغير الآثمين ، ويقرر بعد ذلك أن هؤلاء الذين يحكمون على الآثمين هم ملوثون مثلهم ، حتى تكون العاطفة الانسانية عندهم هى العاطفة الغالبة على كل عاطفة

نظرت الشريعة الاسلامية إلى هؤلاء الآثمين كما نظر غيرها ، وفرضت القصاص وفى القصاص حياة ، وقام الشارع بأحكام ما تنزل ، ورأى أن دفع القتل بالقتل أنفى للقتل . وهذه الشريعة هى شريعة من جاء قبله ، وهى الشريعة التى يحض عليها العقل ويبعث اليها الانصاف

ولكن الرسول — برغم لوثة هؤلاء الآثمين — قد ارتفع معهم فى كثير من المواقف بعاطفة الانسانية فوق حدود الشريعة ، ونظر إلى هؤلاء المرضى نظرة ملؤها الرأفة والاشفاق ، وعطف على كل نفس ضالة — لأن الهدى والضلال على بعدهما متقاربان متلاصقان — وأن إهمال درس هذه العاطفة الانسانية عند الرسول مما يترك ناحية العواطف الأخرى قاسية صارمة . وأن على أرباب الفقه أن يرتبوا العقود والحدود كما رتبوها أبواباً أبواباً ، وأن على آخرين أن يحللوا هذه العاطفة التى تجعل من الرسول قلباً نقياً وعاطفة إنسانية متسامحة

ما عسى تبلغ اليه هذه العاطفة الانسانية فى صدر الرسول ؟ أذكر عبارة تلوتها فيما كتب « رينان » عن المسيح « إن

المسيح هو أول من سلك فى تفهم الله مسلكا جديدا ، إذ جعل علاقة الله مع الناس كعلاقة الأب مع أبنائه ، علاقة كلها رأفة ومحبة وحنان » وبهذه الرحمة الشاملة تفهم الرسول معنى الألوهية فقال : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ! »

وإنى لأجد الرسول فى الصلاة ، ومن ورائه أعرابى يدعو فى صلاته : « اللهم ارحمنى وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً » . فقال له الرسول : « لقد حجرت واسعاً » وكأنه أراد أن يقول له : « قل اللهم ارحمنى وارحم جميع الكائنات ، لأن رحمة الله أوسع من جميع آثامهم وذنوبهم »

وإنى لأراه وهو يفكر فى هذه الرحمة التى يرجو أن تشمله ، وهى الرحمة التى ملكت عليه مشاعره . أراه « وقد وجد امرأة من السبى تحلب ثديها تسقى ، إذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فالتفت إلى أصحابه وقال :

— أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟

فقالوا : لا . وهى تقدر على ألا تطرحه ؟

فقال : — وقد طفت على قلبه هذه الرحمة الشاملة :

— الله أرحم بعباده من هذه بولدها »

ولقد تتمثل هذه الرحمة فى كل جزء فيه ، حتى ليحسب أن الكائنات كلها قد اندمجت وأحاطت بها رحمة الله ... « فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة » وهو لا يفسر الرحمة تفسيراً ضيقاً يمنحها أناساً ويحرمها على أناس لأن الرحمة الشاملة إذا دخلت فى قلب غيرت فيه كل الأساليب الموروثة فى تفهم الوجود ، وجعلته ينظر إلى الوجود كشىء كلى ممتزج فقير إلى هذا البلسم ! وجودته من كل الأهواء ليتحد مع الكائنات اتحاداً ثانياً بكل شىء فيه ، لا يهدأ قلبه ما دام يتعذب هنالك إنسان ! وهو لا يفسر الرحمة تفسيراً رمزيا ، وإنما يرمى بمختلف الأمثلة إلى تمثيل هذه الرحمة تمثيلاً واضحاً تكاد تتبينه العين وتتقراه اليد باللمس ! وقد أثر هذا الفهم فى نفسه تأثيراً واضحاً ؛ فهو تهمل عيناه إشفاقاً على قومه ، وهو يتحمل بلاءهم بقلب صابر ولسان شاكر ويقول : « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » وهو يستمهل الله فيهم عند ما نودى : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك » . فقال : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً »

وقد ملك عليه شعور الرحمة حتى كاد يغلب على كل عاطفة فيه . « يرى الرجل الاسرائيلى الذى قتل تسعة وتسعين رجلاً ثم خرج يسأل ، فأتى راهباً فسأله فقال له : « هل من توبة ؟ » فقال : « لا » فقتله ، فجعل يسأل ، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموت ، فناء بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فاوحى الله إلى هذه أن تقربى ، وأوحى الى هذه أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجده إلى هذه أقرب بشبر فغفر له . » وهل غفرت لهذا القاتل إثمه إلا عاطفة الرسول الانسانية التى قدرت فيه قلبه النادم ونيته الساعية وراء التوبة ؟ وقلب الرسول مفعم رحمة وشفقة على هؤلاء — مع قوله فى معاقبتهم — ولا يستطيع الفكر أن يوفق بين الاثم الكبير البالغ تمحوه حسنة صغيرة ! فمن ذلك « امرأة مومس مرت بكلب على رأس ركى يلهث قد كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك ! » ذلك أن قلب الرسول يحاول أن ينقذ هذه الكائنة الشقية ، ويلقى فى النفس معنى الاحسان إلى الحيوان « وإن لنا فى كل كبد رطبة أجرا »

وقد تسمو نفس الرسول فى النظر إلى هؤلاء الآثمين ، فهو لا يفر منهم ولا يزور عنهم لأنه يطمع فى صلاحهم

« قال رجل : لأتصدقن بصدقة ؛ فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : « تصدق على سارق » ! فقال : « اللهم لك الحمد ! » لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : « تصدق الليلة على زانية ! » . فقال : « اللهم لك الحمد ! » على زانية ! لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون : « تصدق على غنى ! » فقال « اللهم لك الحمد ! » على سارق وعلى زانية وعلى غنى ! ولقد يظن المرء لأول وهلة أن هذه الصدقات باطلة لأنها لم تقع فى مواضعها ، ولكن الرسول حللها من الناحية الانسانية ، فأتى فقيل له : « أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن

تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله » فلم يمنع الرسول الرفق بهؤلاء الآثمين ولم يجعل التصدق عليهم حراما . وإذا كان السيد المسيح أطلق الزانية لأنه لم يجد من يأخذ على نفسه معاقبتها فالرسول أطلقها وأطلق السارق وأطلق الصدقة عليهما ليستعفا . . . وبهذا أشفق على المريض وحارب جرائم مرضه ! وهو خلال ذلك ينتظر أن يغمرهم نور التوبة ويصرفهم عما فيه وازعُ الضمير

وقد يعجب المرء من هذه العاطفة التي لو أخذنا بها لعطلت الحدود . إذ كيف نتصدق على سارق أوجب الشرع قطع يده ، أو على زانية أوجب رجمها ؟ ذلك أن الرسول يدرك أن الغاية من الشريعة الهدى والرحمة ، وأن القصاص سبيل يسلكه الشارع إذا عز الوصول إلى الهدى إلا به

فهو بهذا دل على إنسانية سامية تفهم الوجود رحمة ومحبة ، وإن روحه لتتصل بالمذنب اتصالها بالبريء ، وأنه يحب الناس مهما فعلوا ، وأنه يجد في نفسه ميلا إلى الرفق بالآثمين ، وهذا الميل جعله يسلك السبل المتعددة ليدفع عنهم آثامهم ويطهرهم من أرجاسهم . ونرى بعد هذا كله — هذه الكتلة من الرحمة والمحبة تقف أمام الرحمة الشاملة تدعو ربها :

« اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب
اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الابيض من الدنس
اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد »

أليست هذه الانسانية بأسرها تتمثل في شخص الرسول تطلب إلى الله أن يشملها برحمته ؛ ويغسل خطاياها برأفته حيث تغسل الأوزار وتضيع حدود العقاب في عالم تعمره الرحمة وتسكنه المحبة ، لا نهايات له ولا حدود ؟

(دير الزور) **خليل الهنداوي**

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (في مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (في مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد في الخارج ١٥ قرشاً

ذكريات يجتليها محرم

لشاعر السودان الاستاذ عبد الله عبد الرحمن

هو الشوق في أحشائنا يتضرم الى ذكريات يجتليها محر
الى ذكريات هن بعث ويقظة وهن لآلام الجراحات مر
بني الشرق ، والاسلام في كل موطن ،
يحييكمو مني على النأي مس
تعالوا بجدد من عهود تصرمت
وما الشأن في عهد الكرام التصر
تعالوا بجمع من نفوس تفرقت شعاعاً ولا نمضي كما نتو
ونطّرح الواشين تنفث بيننا سموماً ـ وفي الواشين أربد أرق
ونفزعُ الى التنزيل نبني نفوسنا
فليس لما يبني الكتاب مهد

* * *

وفي الهجرة الزهراء قربى قريبة نمت بأسباب الحنيف إليكم
فان نحيها نحي الزمان تقدمت أوائلنا أهليه وهو لهم فم
وإن نحيها نحي النفوس كبيرة
وإن جعلت في أرضها اليوم نهضم
وإن نحيها نحي المروءة والندى وبأساً من الفولاذ أمضى وأصر
ألا ليت شعري ما دهى العرب إنني أرى الجو في آفاقها يتسمم
أكل بناء غيرهم متساند وكل قبيل غيرهم متقدم
أجل كل قوم فرطوا في لغاتهم غدوا وصروف الدهر فيهم تحكم

* * *

أرى الغرب يعنى باللغات رجاله ونمشي الى أعلامها نتعلم
هم يكبرون من رجال توفروا عليها إلى أن أكبر الناس منهمُ
وفي كل يوم يخرجون مؤلفاً نفيساً وبحثاً ينشر الفضل عنهمُ
ولا يهجرون للجديد قديمهم وذلك خلق عن رقي يترجم
وما ذاك إلا أن حباً يهزهم الى وطن هاموا به وترنموا

* * *

أرى أمم الشرق استفاقت من الهوى
وعاودها سلطانها المتقدم